مجلة العلوم الانسانية، ١٤٢٦/٢٠٠٥ هـ.ق، العدد ١٢ (٢) ١-١٥

ظاهرة الوزن في القرآن الكريم حقيقتها والجديد فيها

محمد ابراهيم خليفة الشوشتري[١]

لقد تنبه الباحثون القدماء الى وجود بعض عبارات قرآنية متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالا معنويا، فهي مفتقرة الى النص الذي هي فيه من جهة المعنى.

لكنها تختلف عن عموم النص القرآن الكريم في كونها موزونة باوزان البحور الشعرية، فدعاهم ذلك الى رصد هذه الظاهرة ومتابعتها، وقد انتهى بهم ذلك الى ان هذه العبارات القرآنية الموزونة تستغرق جميع اوزان بحور الشعر العربي، لذلك ذكروا لكل بحر شعري عبارة او اكثر اقتطعوها من وسط الكلام المعجز، الا انهم – كما يبدو – لم يذكروا للبحر المتدارك مثالا من تلك العبارات، لذلك كان من الطبيعي ان يفرض السؤال التالي نفسه:

هل يمكن ان تكون هذه الظاهرة دليلا علميا صحيحا على ان القرآن الكريم من نمط الشعر – كما ذهب الى ذلك بعض من يدعي العلم – او ان ذلك يدل على امر آخر؟

واني سانقل – فيما يلي – تمهيدا لبيان الاجابة المبسوطة، اغلب تلك العبارات الموزونة ثم اتلوها ببيان اختلاف من مثلوا لكل بحر بعبارة او اكثر منها، في الغرض من قيامهم بهذا العمل الذي قد يبدو غريبا مفتقرا الى توجيه، ثم اذكر في النهاية الادلة العلمية القاطعة التي تثبت ان القرآن الكريم ليس بشعر.

الكلمات الرئيسة: الترتيل، البحور الشعرية، العروض

١ – العبارات القرآنية التي جاءت تحمل أوزان بحور الشعر

قال السيوطي، وهو يشرح موضوع « الانسجام»: الانسجام: هو أن يكون الكلام لخلوه من الانعقاد منحدراً كتحـــــدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أنْ يسيل رقة والقرآن كله كذلك . قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جـــاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه، ومن ذلك ما وقـــع في القرآن موزوناً: فمنه من بحر الطويل: « فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ »[١].

١. عضو الهيئة العلمية، جامعة الشهيد بهشتي بطهران

ومن المديد: «واصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُننا»[٢].
ومن البسيط: «فَأصْبَحُوا لا يُرَى إلاّ مَسَاكِنُهمْ»[٣].
ومن الوافر: «وَ يُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُوْرَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ»[٤].
ومن الكامل: «واللهُ يَهدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقِيم»[٥].
من الهزج:«فَأَلْقُوْهُ على وَجْهِ أبِي يَأتِ بَصِيراً»[٦].
ومن الرجز: «وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وذُلِّلَتْ قُطُوْفُها تَذليلاً» [٧].
ومن الرمل: «وجفان كالجَوابِ وقُدُوْرٍ راسِيات»[٨].
ومن السريع: «أو كالذي مَرَّ على قَرية»[٩].
ومن المنسرح: «إنّا خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ نُطفَة»[١٠].
ومن الخفيف: « لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَديثاً »[١١].
ومن المضارع: « يَومَ التَّناد » . « يَومَ تُوَلُّونَ مُدبرينَ »[١٢].
ومن المقتضب: « في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ » .[١٣]
ومن المجتث: « نَبِّئْ عِبادِي أنِّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ».[١٤]
ومن المتقارب: « وأمْلِي لَهُمْ إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »[١٥][١٦].

٢- ما غرض الذين ذكروا العبارات القرآنية الموزونة ومثّلوا بها لبحور الشعر؟

إنّ الذي يبدوأنّ الذين استخرجوا العبارات القرآنية، التي تحمل أوزان بحور الشعر، واقتطعوها من النص القرآني، وذكروها أمثلة لبحور الشعر، لم يكن غرضهم واحداً. بل كانوا مختلفين في الغرض، إذ انقسموا إلى الأقسام الثلاثة التالية:

القسم الأول: الذين كان غرضهم الاستدلالَ بذلك على قوة انسجام النص القرآني الكريم وذلك استناداً إلى القاعدة القائلة: إنّ النثر إذا قوي انسجامه جاء موزوناً بلا قصد:

قال ابن أبي الاصبع معرفاً الانسجام: " وهو أن يأتي الكلام مُتحدّراً كتحدّرالماء المنسجم سهولة سبك، وعذوبة ألفاظ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ماليس لغيره، مع خلوّه من البديع، وبعده عن التصنيع . وأكثر ما يقع الانسجام غير مقصود، كمثل الكلام المتزن الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفواً كمثال أشطار وأنصاف وأبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز، ورويت عن الرسول — صلى الله عليه وسلم —، فان وقع من ذلك في غير القرآن بيتان فصاعداً سمّي ذلك شعراً، وإنْ لم يقصد، وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه إلاّ مثال النصف، أو البيت الواحد، والبيتُ المفرد لا يسمى شعراً[١٧].

وقال ابن حجة الحموي وهو يتحدث عن الانسجام في النثر: "وإن كان الانسجام في النثر، يكون غالب فقراته موزونة من غير قصد لقوة انسجامه، وأعظم الشواهد على هذا ما جاء في القرآن العظيم من الموزون بغير قصد، في بيوت وأشطار بيوت، فمن الطويل الذي جاء على أصل الدائرة في القرآن العظيم[١٨].

ثم بدأ الحموي يذكر عبارة موزونة من القرآن الكريم مثالاً لكل بحر شعري.

وقال السيوطي معرفاً الانسجام: " هو أن يكون الكلام لخلوّه من الانعقاد منحدراً كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أنْ يسيل رقة، والقرآن كله كذلك.

قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه. ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً؛ فمنه من بحر الطويل[١٩] . ثم بدأ يمثل لكل بحر بعبارة قرآنية موزونة.

٣- مناقشة علماء البديع هؤلاء

إنّ الذي فهمته من النصوص السابقة لابن أبي الاصبع والحموي والسيوطي أنّ ملاك الانسجام هو الوزن الشعري، فما جاء من النثر موزوناً بلا قصد، كان انسجامه قوياً، لأنّ قوة الانسجام تنتهي بالوزن الشعري . وإذا كان ذلك كذلك، فانّ الحموي والسيوطي ومن رأي نفس الرأي من علماء البديع، قد واجهوا الاشكالات التالية ووقعوا فيها:

الاشكال الأول: أنّ علماء البديع الذين اعتقدوا هذا الرأي قد وزنوا القرآن الكريم بالشعر فاعتبروا الشعر أساساً لقوة الانسجام، يقاس ويوزن به القرآن المجيد وغيره . فاعتبروا قوة الانسجام منحصرة في الوزن الشعري وإيقاعه العروضي.

وهذا أمر غير صحيح لذلك لم يقل به المحققون من علماء البلاغة لأنك لاترى موضوع الانسجام في المصادر البلاغية الأصلية، ككتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ومفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح للقزويني، والمختصر للتفتازاني، وشرح التخليص للبابرتي، والتبيان للطيبي، والأطول للحنفي، والمطول للتفتازاني، وجميع شروح التلخيص. وأظن أنّ ابن أبي الاصبع المتوفى سنة « ٦٥٤ هـ » من أوائل من قالوا بذلك.

الاشكال الثاني: أنه يفهم من كلام الحموي والسيوطي وابن أبي الاصبع أنهم اعتبروا العبارات القرآنية الخالية من الوزن الشعري عارية من قوة الانسجام . وهذا – أيضاً – أمر غير صحيح.

الاشكال الثالث: أنّ الوزن الشعري لو كان هو أساس الانسجام، لكان هذا الانسجام موجوداً في كل بيت شعري ولما خلا منه بيت واحد . وهذا ما لم يقل به هؤلاء أنفسهم أعني الحموي وابن أبي الاصبع والسيوطي.

وأرى أنّ حال هؤلاء كحال من أراد أن يمدح فذم، أو أراد أن يحسن فأساء.

القسم الثاني: الذين كان غرضهم أنْ يثبتوا أنّ القرآن الكريم ليس بشعر، وأنّ تلك العبارات الموزونة لا تقوم دليلاً على أنّ القرآن المجيد من نمط الشعر.

فهؤلاء أوردوا بعض تلك العبارات القرآنية الموزونة لغرض الاستدلال – بعد ذلك – على نفي أنْ يكون القرآن الكريم شعراً . ومن هؤلاء أبو بكر الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن، [٢٠] والزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن[٢١] .

قال أبو بكر الباقلاني: " فان زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام، أو أبيات تامة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع، كقول القائل:

قد قلتُ لمّا حاوَلُوا سَلوتي:

« هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ[٢٢] »

مما يزعمونَ أنه بيت، قوله: « وجِفانٍ كالجَوابِ وقدورٍ راسِياتٍ».[٢٣]

قالوا: هو من الرمل ... والجواب عن هذه الدعوى التي ادّعاها من وجوه: أولها: أنّ الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعراً، و لم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته، لأنّ الشعر مُسَخَّرٌ لهم مُسَهَّلٌ عليهم، ولهم فيه ماعلمت من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عوّلوا عليه عُلِمَ أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء في الصنعة والمُرمِدُونَ في هذا الشأن[٢٤].

القسم الثالث: الذين كان غرضهم أن يثبتوا بذلك أنّ القرآن الكريم من نمط الشعر وهذا ما يفهم من نص الباقلاني السابق، الذي قال فيه: « فان زعم زاعم ... » .

ويفهم أيضاً من كلام ابن فارس إذ قال: " وقد ذكر ناسٌ في هذا كلمات من كتاب الله – جلّ ثناؤه –، كرهنا ذكرها .[٢٥].. " . فابن فارس إنما كره ذكر ذلك – كما يبدو – لوجود جماعة أساءوا استغلال هذه الكلمات القرآنية الموزونة، فاستدلوا بها على كون القرآن الكريم من نمط الشعر.

ونذكر – فيما يلي – بعض الأدلة العلمية التي تبطل ذلك:

٤– الأدلة العلمية القاطعة بأنّ القرآن الكريم ليس من نمط الشعر

الدليل الأول: نزاهة القرآن الكريم من الخيال الأدبي الذي هو أساس الشعر وزينته ورصيده، والذي يدغدغ العواطف، ويداعب الإحساسات، والذي قصده بلغاء

الجاهلية، ونقاد أدبها الحاذقون بقولهم: « خير الشعر أكذبه»[٢٦].

فلقد نزّه الله – تعالى – القرآن المجيد – وهو مترّه فعلاً – عن أن يكون كلام شاعر رأس ماله الخيالُ ومُخاطبُهُ العواطفُ والمشاعر النفسية، فقال تعالى: « وما هو بقَول شاعرٍ»[٢٧].

بل إنّ مخاطب القرآن الكريم إنما هو العقل بما هو عقل بعيداً ومجرداً عن المؤثرات الخارجية . وهذا واضح، وهو ما أكده العلماء قديماً وحديثاً.

قال الزركشي: " فأعلمَ – سبحانه – أنه نزه القرآن عن نظم الشعر والوزن، لأنّ القرآن مجمع الحق، ومنبع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التحصيل بتصوير الباطل في صورة الحق، والإفراط في الإطراء والمبالغة في الذم والإيذاء دون إظهار الحق وإثبات الصدق منه كان بالعرض، ولهذا قال تعالى: « وما هو بقول شاعر »، أي: كاذب، و لم يعن أنه ليس بشعر، فانّ وزن الشعر أظهر من أنْ يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أنْ ينفى عنه ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى المنطقيون القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى الباطل والكذب:شعرية [٢٨].

وقال عميد الأدب العربي طه حسين مبيناً أن الشعر مبتن على الخيال: " إنّ الكلام الذي يسمى شعراً يجب أن يستوفي أركاناً ثلاثة:

أنْ تكون المعاني مما ولّده الخيال، وأنْ يكون اللفظ متخيراً بحيث يلائم طبيعة الشعر الخيالية والموسيقية، وأن تكون الألفاظ ذات انسجام خاص هو الذي نسميه الوزن[٢٩].

وقال موضحاً أنّ مخاطب الشعر إنما هو النفوس والمشاعر، لاالعقول إذ لاتأثير له فيها إلاّ في حكمة أو موعظة قال طه حسين: " وخلاصة القول أنّ الشعر لا يؤثر ولا يحاول أنْ يؤثر في عقولنا المفكرة، بل في نفسنا الحساسة، وقلبنا المتفتح لمثل هذه التأثيرات[٣٠].

الدليل الثاني: أنّ القرآن الكريم لو كان شعراً لما أعلن بلغاء الجاهلية وشعراؤها الذين سخّروا الشعر لقرائحهم، وتصرّفوا فيه تصرّفاً عجيباً، لما أعلن هؤلاء عجزهم عن معارضته، والإتيان بسورة مثله.

وقال الباقلاني المتوفى سنة (٤٠٣ هـ): " إنّ استدراك مَن يجئ الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم وزعمَهُ أنه قد ظفر بشعر في القرآن وقد ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم عنده إلى الطعن في القرآن والغض منه، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه – فلن يجوز أنْ يخفى على أولئك، وأن يجهلوه، ويعرفه من جاء الآن، وهو بالجهل حقيق[٣١].

الدليل الثالث: أنّ وجود عبارات موزونة في النثر ليس أمراً غريباً وعجيباً، بل هو أمر عادي متعارف عليه، إذ قد توجد عبارات موزونة في محاورات الناس اليومية ومحادثاتهم ولا أحد يجيز لنفسه أن يركن إلى الجهل فيدعي أنّ هذه المحاورات والمحادثات شعر بدليل وجود عبارات موزونة مبعثرة فيهاهنا وهناك، وقد أجمع العلماء والأدباء على ذلك قديماً وحديثا.

قال الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ): ويدخل على من طعن في قوله: « تَبَّتْ يَدا أبي لَهَب »[٣٢]، وزعم أنه شعر، لأنه في تقدير: «مستفعلن مفاعلن »، فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت الناس وخطبهم ورسائلهم لو جدت فيها مثل: «مستفعلن مستفعلن» كثيراً، و«مستفعلن مفاعلن»، وليس لُحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أنّ رجلاً من الباعة صاح: «مَن يشتري باذنجان؟» لقد كان تكلم بكلام في وزن «مستفعلن مفعولات»، وكيف يكون هذا شعراً، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام ... وسمعت غلاماً لصديق لي وكان قد سقى بطنه وهو يقول لغلمان مولاه: «اذهبوا إلى الطبيب وقولوا: قد اكتوى». وهذا الكلام يخرج وزنه على خروج: «فاعلاتن مفاعلن. فاعلاتن مفاعلن»، مرتين. وقد علمت أنّ هذا الغلام لم يخطر

على باله قط أنْ يقول بيت شعر أبداً . ومثل هذا كثير، ولو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته[٣٣].

وقال الزمخشري المتوفى سنة (٥٢٨ هـ): كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة، لا يسميها أحد شعراً ولا يخطر ببال المتكلم و لا السامع أنها شعر، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز[٣٤].

وقال السكاكي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ): " يلزمه أن يعد كل لافظ في الدنيا شاعراً إذ ما من لافظ، إن تتبعت، إلاّ وجدت في ألفاظه ما يكون على الوزن، أو ما ترى إذا قيل لباذنجاني: بكم تبع ألف باذنجانة ؟ فقال: أبيعها بعشرة عدليات.

كيف تجد القولين على الوزن؟ أو إذا قيل لنجار: هل تمّ ذاك الكرسي؟ فقال: نعم فرغت منه يوم الجمعة، كيف تجد الأول في الأوزان، والثاني أيضاً؟ وعلى هذا إذا قيل لجماعة:مَن جاءكم يوم الأحد ؟ فقالوا: زيد بن عمرو بن أسد[٣٥].

وقال الدكتور ابراهيم أنيس: وإنما هو الكلام العربي الموسيقى في أكثر نواحيه. وقد يقع كلام الناس موزوناً دون إرادة الوزن كأن يقول القائل: «إغلقِ البابَ واِئتِني بالطعام» أو أن يقول: «أكرموا مَن لقيتم مِن تميم» أو يقول: «إسقِني الماءَ يا غلامُ سريعاً»، فكل هذا مما جاء على أوزان الشعر المعهود[٣٦].

الدليل الرابع: أنّ أكثر القرآن الكريم غير خاضع للأوزان العروضية الشعرية، وأنّ جميع حروفه الملفوظة غير خاضعة لإيقاع بحر معين، ولا لإيقاع بحور متعددة، لذلك لا يجوز الاستدلال بالعبارات القرآنية الموزونة على أنّ القرآن شعر، بل لا يجوز الاستدلال على أنّ هذه العبارات الموزونة هي من نمط الشعر، ولا شك أنّ الأسباب التالية تؤكد ذلك:

السبب الأول: أنّ عموم القرآن الكريم خال من الأوزان العروضية .

السبب الثاني: أنّ جميع كلماته وجميع حروفه لم تحمل إيقاع بحر واحد، بل ولا أيقاع بحور متعددة.

السبب الثالث: أنّ هذه العبارات الموزونة لم تحمل وزن بحر معين، لأننا نعلم أنّ القرآن الكريم كلّ واحد.

السبب الرابع: أنّ هذه العبارات الموزونة لم تمثل جميع القرآن الكريم، فلا يجوز إصدار حكم على جميع القرآن استناداً إليها.

السبب الخامس: أنّ أكثر هذه العبارات الموزونة مقتطع اقتطاعاً عشوائياً لم يلاحظ فيه اكتمال معنى العبارة في حين أنّ كمال المعنى شرط في الجملة وأنّ مجرد الوزن لا يبرر اقتطاعها من النص للتمثيل بها، أضف إلى ذلك أنّ وزن بعض هذه العبارات لا يعادل وزن بيت كامل، بل يعادل وزن شطر واحد فقط . بل إنّ الملاحظ في هذا العمل العشوائي شئ واحد هو الوزن فقط.

فأكثر هذه العبارات — كما سنرى — مقتطع من وسط كلام خال من الوزن، ومتصل ببعضه اتصالاً معنوياً، وبدونه لا يتم معنى العبارة المقتطعة، فهذه العبارة غير مستقلة معنوياً . بل هي مفتقرة إلى ما قبلها، أو إلى ما بعدها. وأذكر فيما يلي أمثلة لذلك:

المثال الأول: قول الله – تعالى –: " أينما تكونوا يُدرِكْكُمُ المَوتُ ولو كُنْتُمْ في بُروج مشيّدة وإنْ تُصبْهُم حسنَةٌ يَقُولُوا هذه مِنْ عِنْد الله وإنْ تُصبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هذه مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فمالِ هؤلاءِ القَوْمِ لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَديثاً[٣٧].

لقد اقتطع السيوطي من هذه الآية الكريمة المتقدمة العبارة التالية: «لا يَكادونَ يفقهونَ حديثاً»، وضربها مثالاً للبحر الخفيف، فقال: ومن الخفيف: «لا يكادون يفقهون حديثاً»[٣٨].

وأود أن أنبه إلى أنّ الأمور التالية تمنع علمياً من أن يؤتى بهذه العبارة القرآنية مثالاً للبحر الخفيف.

٥- الأمور التي تمنع الاتيان بالعبارة القرآنية المتقدمة مثالاً للبحر الخفيف

الأمر الأول: أنّ معنى هذه العبارة: «لا يكادون يفقهون حديثاً» غير مستقل عما قبلها، وإنما معناها مرتبط بالكلام السابق، لأنّ هذه العبارة هي جملة حالية في محل نصب ومعلوم أنّ الحال مفتقرة معنوياً إلى صاحبها وإلى عاملها، فلا يتم معناها بدونهما.

الأمر الثاني: أنّ الكلام السابق لهذه العبارة لا يحمل الوزن العروضي.

الأمر الثالث: أنّ هذه العبارة تكرر ذكرها في سورة الكهف خالية من الوزن العروضي إذ قد تكررت بنفس المعنى، لكن باستعمال كلمة «قولاً» مكان كلمة «حديثاً».

وهذا الاستعمال هو الذي كسر وزن العبارة. وهذا يدل دلالة واضحة على أنّ الوزن العروضي غير مطلوب وغير مقصود لذاته في العبارات القرآنية الموزونة . وإذا بطل الاتيان بهذه العبارة القرآنية: «لا يكادون يفقهون حديثاً» مثالاً للبحر الخفيف – وهو الحق –فما ظنك بالاستدلال بها وبأمثالها على أن القرآن شعر؟.

المثال الثاني: قول الله تعالى: « ويا قَوْمِ إنّي أخافُ عليكم يومَ التّناد»[٣٩].

«يومَ تُوَلّونَ مُدبرينَ مالكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمالَهُ مِنْ هاد»[٤٠].

لقد اقتطع السيوطي من الآية الأولى آخر كلمتين فيها وهما: «يومَ التناد» ثم أضاف هاتين الكلمتين إلى الكلمات الثلاث الأولى من الآية التالية.

وبعد ذلك اقتطع هذه الكلمات الخمس وضربها مثالاً للبحر المضارع، فقال: " ومن المضارع: « يومَ التّناد، يومَ تولّونَ مُدبرينَ»[٤١].

وأناقش السيوطي قائلاً: إنّ الأمرين التاليين يُحرّمان الإتيان بهذه العبارة القرآنية مثالاً لبحر من بحور الشعر . هذا فضلاً عن الاستدلال بمثل هذه العبارة على أنّ القرآن شعر.

الأمر الأول: أنّ معنى هذه العبارة ناقص وغير مستقل ومفتقر إلى الكلام السابق، لأنّ كلمة «يومَ» ظرف معمول للفعل «أخاف». لذلك نجد هذا التركيب الاضافي: «يومَ التناد» مبهماً لعدم وجود عامله. فمعنى هذه العبارة ناقص ومبهم، فهو غير مفهوم.

الأمر الثاني: أنّ الكلام السابق لهذه العبارة والكلام اللاحق لايحملان وزن هذه العبارة.

المثال الثالث: قول الله – تعالى –: «ولا تقتلوا النّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ»[٤٢] . إنّ هذه العبارة القرآنية الكريمة ليست آية كاملة، بل إنها قسم من آية.

والمهم أنها جملة استثنائية، لا يتم معناها إلاّ بذكر ما بعد (إلاّ)، وهو المستثنى، والمستثنى فيها هو (بالحق) وهو في موضع الحال[٤٣]، وإذا صح هذا فيكون معناها: «ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللهُ إلاّ مُحِقينَ أو مقتصين»، لذلك فهذه الجملة القرآنية الكريمة لا يتم معناها إلاّ بذكر المستثنى، ولو لم يذكر المستثنى لكان النهي عن القتل شاملاً للنهي عن قتل القاتل وغيره ممن أوجبت الشريعة قتله[٤٤].

ولكان قتل القاتل لا يجوز شرعاً، وهذا واضح البطلان في الاسلام. لكننا – على الرغم من كل ذلك – وجدنا بعض الباحثين المحدثين، وبعض الأدباء قد حذفوا من هذه الجملة القرآنية الكريمة الشيئين التاليين:

١- أداة الاستثناء.

٢- المستثنى .

ثم ذكروا ما بقي من الجملة وهو «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله» مثالاً للبحر الكامل علماً بأن وزن هذه الجملة الناقصة يعادل وزن شطر واحد، ولا يعادل وزن بيت. ولا شك أنّ في هذا العمل من الدلالة على جهل فاعله لما فيه. قال الدكتور إبراهيم أنيس، وهو يقرّ ما فعله الشاعر في بيتيه التاليين، قال: و لم يجد بعض أصحاب العروض مشقة أو عسراً حين وضعوا ضوابط وشواهد لأوزان الشعر، وضمنوها بعض آيات القرآن الكريم:

تلافوا بطولِ الوصلِ نفس متيّم

بدور الدياجي والنجومُ سَمَراه

فعـــولـــن مفاعيلن فعـــولـــن مفاعلـــن

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله»[٤٥]

الدليل الخامس: أننا نجد بعض الآيات أو العبارت القرآنية لو حصل فيها تغيير يسيط لصار وزنهـــا مطابقـــاً لوزن بحر من بحور الشعر المعروفة. لكنَّ ذلك لم يحـــصل. ولّما لم يحصل مع سهولة إمكانيته دلَّ دلالةً قاطعة على أنَّ القرآن الكريم ليس بشعر، وأنَّ الوزن الموجود في بعـــض العبارات القرآنية غير مقصود لنفسه.

وأضرب لذلك مثالين فيما يلي:

المثال الأول: قال الله – تعالى – «أرأيتَ الـــذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ فذلكَ الذي يَدُعُّ اليتيمَ»[٤٦].

فلو حذفت اللام من ‹فذلك› وصـــارت ‹فـــذاك› لأصبحت هذه العبارة القرآنية بيتاً شـــعرياً مـــن البحـــر الخفيف مدوراً، وزنه ما يلي:

‹ فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن›. فاثبات هذه اللام قد كسر الوزن، وأخرج العبارة من الوزن الشعري، فعـــدم حصول هـــذا التغيير البسيط، وإثبات اللام مع ســـهولة حذفها، أعظم دليل، وأقوى برهان على أنَّ القرآن الكريم ليس بشعر، وأنَّ الوزن الموجود في بعض العبارات القرآنية غير مقصود لنفسه . وهـــــــذا يعني أن القرآن المجيد لم يعبأ و لم يهتم بالايقاع الشعري. بل إنه يتمتع بايقاعـــه الخاص المعجز. لذلك لّما أراد أبو نواس، أنْ يُضمّنَ هـــذه العبارة القرآنية في شـــعره اضطر إلى حذف تلك اللام، وبذلك سقطت العبارة عن كونها قرآناً قال أبو نواس[٤٧]:

وقرا مُعلناً ليصـــــــــدعَ قلبي

والهوى يَصدعُ الفؤادَ السقيما

أرأيتَ الذي يكـــــــــذب بالديـــ

ـــــنِ فـــــــــذاكَ الذي يَدُعُّ اليتيما

المثال الثاني: قال الله – سبحانه –: « سبحانَ الذي سَخَّرَ لنا هذا وما كُنّا له مُقرنينَ»[٤٨] .

إنَّ هذه العبارة القرآنية خالية من وزن بحر من بحور الشعر . لكنَّ أحـــــد الشعراء حينما أراد أنْ يضمنها في شعره اضطر إلى أنْ يحدث فيها التغييرات التاليـــة، لكـــي يحولها إلى عبارة موزونة بوزن البحر البسيط.

والتغييرات التي أحدثها هي:

الأول: أنه حذف كلمة ‹ الذي ›، ووضع مكانهـــا كلمة ‹ مَن › .

الثاني: أنه قدّم كلمة ‹ هذا › على الجار والمجرور ‹ لنا ›.

الثالث: أنه أضاف كلمة ‹ حقاً ›.

الرابع: أنه حذف حركة النون من ‹ مقرنينَ › .

فصار بيته الآتي:

سبحانَ مَن سَخّر هذا لنا

حَقّاً وما كنّا له مُقرنين[٤٩]

ولا شك أنَّ هذه التغييرات أخرجت العبارة عـــن كونها قرآناً . بل إنَّ تغييراً واحداً – مهما كان صغيراً – يكفي لاخراج العبارة عن النص القرآني الكريم.

والمهم أنه لو كان القرآن يعبأ بـــالوزن الـــشعري، لجاءت هذه العبارة على وزن البحر البسيط، ولما تكلف الشاعر إجراء تلك التغييرات.

لذلك فلا يجوز التمثيل بالعبارات القرآنية لبحـــور الشعر كما لا يجوز – من باب الأولى – اعتبار القـــرآن شعراً لعدم افتقاره إلى الوزن الذي يفتقر إليـــه الـــشعر، ولاستغنائه بايقاعه المعجز الخاص به.

الدليل السادس: أننا وجدنا في ســـورة واحـــدة عبارتين يوجد بينهما فاصل طويل تحملان وزن البحـــر الطويل.

الآية الأولى: هي الآية التاسعة والعشرون من سورة الكهف وهي قـــوله – تعالى –: «وَقُلِ الحَقّ من ربِّكُـــمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إنّا أعْتَدْنا للظالمينَ ناراً أحـــاطَ بِهِمْ سُرادِقُها» والعبارة الموزونة المقتطعة مـــن هذه الآية هي: «فَمنْ شاءَ فَلْيؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ».

والآية الثانية: هي الآية الواحدة والثلاثون من سورة الكهف، وهي قوله – تعالى – : «أولئكَ لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تجري مِنْ تَحتِهِمُ الأنهارُ يُحلّوْنَ فيها مِنْ أساورَ مِنْ ذَهَبٍ ويَلْبَسونَ ثياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإستَبْرَقٍ مُتّكِئينَ فيها على الأرائكِ نِعْمَ الثّوابُ وحَسُنَتْ مُرْتَفَقا».

والعبارة المتقطعة من هذه الآية والتي تحمل وزن البحر الطويل هي: « يُحَلّوْنَ فيها مِنْ أساورَ مِنْ ذهَبٍ».

والخلاصة أنّ سورة الكهف اشتملت على عبارتين مفصولتين ومسبوقتين ومتبوعتين بكلام خال من وزنهما، وهذه الظاهرة دليل قاطع وواضح وضوحاً كاملاً، على أنّ مثل هذه العبارات الموزونة لا يمكن أنْ تكون دليلاً على أنّ القرآن الكريم شعر ؛ لأنّ شرط الشعر أنْ تخضع جميع حروفه المنطوقة لوزن البحر.

الدليل السابع: أننا وجدنا في السورة الواحدة أوزان بحور كثيرة ؛ فقد وجدنا في سورة واحدة وزني بحرين، ووجدنا في سورة أخرى أوزان ثلاثة أبحر، فقد قالوا: إنّ قوله – تعالى –: « إنّا خلقنا الانسانَ من نُطفَة»[٥٠]، يحمل وزن المنسرح، وهذه العبارة من الآية الثانية من سورة الانسان.

وقالوا – أيضاً –: إنّ قوله – تعالى –: «وَذُلّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلاً»[٥١] . يحمل وزن الرجز. وهذه العبارة من الآية (١٤) من سورة الانسان.

ولقد وجدناهم يضربون ثلاث عبرات قرآنية من سورة البقرة أمثلة لثلاثة أبحر من بحور شعر.

فقالوا: إنّ قوله تعالى: « في قُلوبهم مرضٌ»[٥٢]، يحمل وزن المقتضب، وهذه العبارة من الآية العاشرة.

وقالوا: إنّ قوله – تعالى –: « والله يهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[٥٣]، يحمل وزن الكامل وهذه العبارة من الآية ‹ ٢١٣ › .

وقالوا: إنّ قوله – تعالى –: «أو كالذي مَرَّ على قريَة»[٥٤]، يحمل وزن السريع وهذه العبارة من الآية ‹٢٥٩›.

إنّ هذه الظاهرة مخالفة لقانون عروض الشعر الذي لايجيز تعدد أوزان بحور مختلفة في قصيدة واحدة . بل يوجب وحدة الوزن، وهي وحدة البحر الذي تنسب إليه القصيدة التي يربطها رباط موضوعي واحد عادة.

والمهم أنّ بروز هذه الظاهرة في سورة واحدة دليل قاطع على نفي الشعر عن القرآن الكريم، وعلى أنّ القرآن المجيد غير جار على قوانين الشعر وعروضه، وليس بخاضع لها لا قصداً ولاعن غير قصد . لأنّ الوحدة الموضوعية في السورة تؤكد أنها كُلٌّ واحدٌ . وهذه حقيقة ثابتة في القرآن الكريم . فالوحدة الموضوعية في القرآن العظيم تجعله كلاً واحداً وبناءً متكاملاً ومنسجماً يشد بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً وترتبط فيه السور برباط موضوعي هادف. ولا شك أنّ هذه الوحدة البنائية الموضوعية موجودة في كل سورة.

فالقرآن الكريم كل واحد . هذا إضافة إلى أنّ هذه العبارات التي تحمل الوزن الشعري تتصف بما يلي:

١ – أنها مقتطعة من وسط كلام متصل معنوياً وأن معناها متوقف عليه.

٢ – أنها ليست في آيات متتالية .

فكيف يكون الكلام الذي أغلبه لا يحمل الوزن والإيقاع الشعري، كيف يعتبر شعراً!

الدليل الثامن: الإنشاد شرط في الشعر، فهو ضروري فيه لأنه من لوازمه: الإنشاد: هو النغمة الموسيقية الخاصة التي ينشد على أساسها الشعر فهو لحنه الموسيقي المؤثر.

قال الدكتور إبراهيم أنيس: " فكما يحتاج الشعر إلى نظام خاص في توالي المقاطع، وهو الذي يسمى بالوزن، يتطلب نغمة موسيقية خاصة في إنشاده من صعود وهبوط « intonation »[٥٥].

فالإنشاد – إذن – أهم ما يتميز به الشعر بعد الوزن والقافية، فالشعر بحاجة ماسة إلى الإنشاد . بل هو مفتقر إليه لكي يظهر الوزن جلياً في نغمة موسقية، ولحن جميل مثير يحتل موقعاً خاصاً في النفوس، ويؤثر فيها التأثير

المطلوب . ولقد أكد الباحثون المحدثون على أنّ الإنشاد أحد عنصرين رئيسيين تتكون منهما موسيقى الشعر، وهما الوزن والإنشاد[٥٦].

وقد خص ابن رشيق القيرواني الانشاد بباب مستقل من كتابه العمدة.[٥٧]

كما وصفه أبو الحسين الكاتب بقوله: ومما يزيد في حسن الشعر، ويمكن له حلاوة في الصدر، حسن الانشاد، وحلاوة النغمة[٥٨].

أما الترتيل فهو بعكس الانشاد يخفي الوزن، ويحول دون إدراكه وظهوره ظهوراً جلياً لذلك فانّ ترتيل العبارات القرآنية الموزونة ذلك الترتيل القرآني المعروف، يخفي ما في بعضها من وزن ويحول دون ظهوره وبذلك ينتفي الوزن الشعري عن تلك العبارات القرآنية و لا يجوز لعاقل عالم أنْ يُمثل بها لبحور الشعر، لأنه « ليس يكفي أنْ توافق الآيات في توالي المقاطع ما جَرت على أوزان العروض من خضوعها لنظام خاص في توالي مقاطعها. بل لابد من أمر هام هو إنشاد الآية كما يُنشدُ الشعر . فاذا تليت كما يرتل القرآن بعدت الآية عن الموسيقى الخاصة التي يتطلبها الشعر في إنشاده ..... فقد ترتل كل الآيات السالفة الذكر الترتيل القرآني المعهود، وحينئذ لا يكاد يدرك السامع ما فيها من وزن»[٥٩].

وهذا يعني أنّ وجود الوزن، في بعض العبارات القرآنية، لا يكفي لاعتبارها شعراً ولا للتمثيل بها لبحور الشعر إلاّ إذا افتقرت إلى الإنشاد كافتقار الشعر إليه، لكنّ الواقع ينفي هذا الافتقار من العبارات القرآنية، فاننا نعلم أنّ الإنشاد لا يتأتى في القرآن الكريم، ولا يستساغ فيه مطلقاً، ولو عملت جهدك لكنت كطالب الانشاد في النثر، أو كمن مطلب في الماء جذوة نار.

وكذلك الأمر لو ذهبت محاولاً ترتيل الشعر، لأنّ الشعر ليس مكاناً للترتيل لذلك لا يتأتى فيه الترتيل، ولا يستساغ هذا أولاً، وثانياً: أننا لو تكلفنا ترتيل الشعر لكنا بعملنا المتكلف هذا قد جعلنا الشعر يفقد وزنه وإيقاعه.

فالترتيل للقرآن والانشاد للشعر، والقرآن يتميز بالترتيل والشعر يتميز بالإنشاد . لذلك كان الترتيل والانشاد أمرين متضادين، لأنّ الترتيل يخفي الوزن، والانشاد يظهره في أجمل صوره.

وكل ما مر يدلنا على سر من أسرار تأكيد الله – تعالى – على ترتيل القرآن الكريم حين قال – سبحانه –: «ورَتِّلِ القرآنَ ترتيلاً»[٦٠] .

الدليل التاسع: أنه يشترط عدم توقف معنى الكلام الموزون على ما يتصل به من نثر.

" وقال بعض الباحثين في حقيقة الشعر: إنّ الشعر كلام موزون لا يتوقف معناه على نثر يتصل به فان كان لا يظهر معنى موزون إلاّ أنْ ينضم إليه ما يتصل به من النثر فليس الموزون بشعر فما كتبه الكاتب الذي أمره بعض الأمراء أنْ يكتب إلى عامل بإنذار ووعيد موجز فكتب إليه: «أما بعد فانّ لأمير المؤمنين أناةً فإنْ لم تغنِ عَقّبَ بعدها وعيداً فإنْ لم يُغنِ أغْنَتْ عزائمه والسلام».

فمن هذا الخطاب يتكون بيت وهو:

أناةٌ فان لم تغنِ عَقّبَ بعدها

وعيداً فان لم يُغنِ أغنَتْ عزائمُه

فلا يسمى هذا البيت شعراً، لأنّ معناه يتوقف على ما قبله من النثر وهو قوله « فان لأمير المؤمنين أناة » فالألفاظ الموزونة في القرآن لا تسمى شعراً حيث إنّ معناها يتوقف على ما يتصل بها من التنزيل[٦١].

لذلك وما دام القرآن الكريم ليس بشعر لا أرى من الحكمة أنْ يُمثّلَ لكل بحر من بحور الشعر بعبارة من القرآن الكريم تُقطَعُ عمّا قبلها من كلامٍ لا يتم معناها بدونه فتُستلُّ من وسط آيةٍ أو من أولها أو من آخرها كما فعل أمثال جلال الدين السيوطي من قدماء ومحدثين وإنْ كانَ الغرضُ التّنويهَ بقدرة القرآن الكريم على أنْ يستعمل الوزن الشعري مع أنه ليس بشعر لأنّ ذلك موجودٌ في النثر أيضاً، قال أبو يعقوب السكاكي:

" ما من لافظ إنْ تتبعتَ إلاّ وجدتَ في ألفاظه ما يكون على وزن ... وتسمية كل لافظ شاعراً مما لا يرتكبه عاقل "[٦٢].

ولقد وجدتُ من العلماء السابقينَ مَن أبى أن يذكر تلك العباراتِ القرآنية الموزونة فضلاً عن التمثيل بها لبحور الشعر، قال أحمد بن فارس: " وقد ذكر ناس في هذا كلمات من كتاب الله – جل ثناؤه – كرهنا ذكرها"[٦٣].

الدليل العاشر: أننا نعلم أنّ الاضطرار مكانه الشعر فقط، إذ لا يوجد إلاّ فيه، فلو كان القرآن الكريم شعراً لوجد فيه مع سعته، ولما لم يوجد فيه عُلِمَ عِلْمَ اليقين أنه ليس بشعر.

الدليل الحادي عشر: أن بلغاء الجاهلية أقروا – وهم مشركون – بأنّ القرآن المجيد ليس بشعر . بل صرّحوا بأنه ليس من الأنماط الأدبية التي كانت متعارفة عندهم.

قال عبد القاهر الجرجاني: " وأما دلالة الأقوال فكثيرة: منها حديث ابن المغيرة، روي أنه جاء حتى أتى قريشاً، فقال: إنّ الناس يجتمعون غداً بالموسم، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس، فهم سائلوكم عنه، فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا: مجنون يخنق . فقال: يأتونه، فيكلمونه، فيجدونه صحيحاً عادلاً، فيكذبونكم . قالوا: نقول: شاعر . قال: هم العرب، وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء، وقوله ليس يشبه الشعر، فيكذبونكم . قالوا: نقول: هو كاهن قال: إنهم لقوا الكهان، فاذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة، فيكذبونكم، ثم انصرف إلى منزله، فقالوا: صبأ الوليد – يعنون أسلم – ولئن صبأ لا يبقى أحد إلاّ صبأ .... ثم أتى قريشاً، فقال: أتزعمون أني صبأت، ولعمري ما صبأت، إنكم قلتم: محمد مجنون، وقد ولد بين أظهركم، لم يغب عنكم ليلة ولايوماً، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ .... وقلتم: شاعر، وأنتم شعراء، فهل أحد منكم يقول ما يقول ؟ "[٦٤].

٦– رأينا في ظاهرة الوزن في بعض عبارات القرآن الكريم

٦–١ من لطائف الأسلوب القرآني المعجز

لقد انتهى بنا التحقيق الدقيق، إلى أنّ ظهور الوزن في عبارة من النص القرآني المعجز تارة، ثم اختفاؤه تارة أخرى وكذلك تكرار العبارة الموزونة في مكان آخر عارية من الوزن وكذلك اتحاد آخر الآيات في الحرس واختلافها فيه، كل ذلك يمثل جانباً مستحدثاً جديداً من نواحي الجمال الايقاعي التي أوجدها وجاء بها القرآن الكريم، والتي لم تألفها الأذن العربية من قبل لكنها تستمتع بسماعها وتستريح إلى الإصغاء إليها وتنجذب إليها وأذكر – فيما يلي – أربعاً من لطائف الأسلوب القرآني تدلان على ذلك:

اللطيفة الأولى: أننا وجدنا قوله– تعالى–: « لايكادونَ يفقهونَ حديثاً»[٦٥]، يحمل وزن الخفيف الذي هو: « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن »، علماً بأن هذه العبارة القرآنية الكريمة تقابل وزن شطر واحد فقط . لكننا وجدنا – أيضاً – أنّ هذه العبارة القرآنية نفسها قد تكررت في سورة الكهف خالية من هذا الوزن، إذ قد كسر وزنها، وبطل إيقاعها المتعارف باستعمال كلمة «قولاً» مكان كلمة « حديثاً »، فظهر إيقاع مبتكر جديد غير مألوف لكنه يستهوي الأسماع، قال تعالى: « لا يَكادونَ يفقهونَ قولاً»[٦٦].

وهذا – فيما أرى – يدل دلالة قاطعة على الأمرين التاليين:

الأول: أنّ الوزن العروضي في القرآن الكريم غير مطلوب لنفسه وغير مقصود.

الثاني: أنّ هذا التنوع، وهذا التنقل بين الوزن تارة، وعدمه تارة ثانية، وانكساره تارة ثالثة، قد يضيف إلى جمال الأسلوب القرآني جمالاً جديداً لم تعهده الأذن العربية، لكنها تستريح إليه، وتستمتع بسماعه.

اللطيفة الثانية: أننا وجدنا أنّ قوله – تعالى –: « أرأيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ فذلكَ الذي يَدُعُّ اليتيمَ»[٦٧] . بدأ متمشياً مع وزن الخفيف الذي هو:

‹فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن › مرتين وبينا هو ينساب مع هذا الوزن، إذ فوجئنا – قبل اكتمال الوزن – بلام ذلك تكسر هذا الوزن، وتعصف به وهذه – فيما أرى – لطيفة ظريفة، وسر من أسرار الأسلوب القرآني المجيد فبينما ترى العبارة القرآنية جارية على وزن معين، ومنسابة معه، إذ تفاجأ – في الوقت المناسب الذي اختير لذلك – بشئ يعترض الوزن ويحوّله إلى مسير آخر، ليحصل الايقاع القرآني المتميز المعجز الذي لازالت تتسابق إلى اكتشاف كنهه عقول ذوي العلم.

وأود أن أشير إلى أنّ هذه الظاهرة قد تحدث في القرآن الكريم حدوثاً يشتبه فيه الأمر على العربي الفصيح الذي لا يدري أنّ هذه العبارة هي عبارة قرآنية، لذلك يحكم بزيادة ذلك الحرف، أو تلك الكلمة التي كسرت الوزن وأعاقت استمراره، وهذا ما حدث فعلاً لأعرابي فصيح، اقرأ معي القصة التالية:

قال الزركشي: ويحكى أنه سمع أعرابي قارئاً يقرأ: يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمْ إنّ زلزلة الساعة شئٌ عظيمٌ»[٦٨]، فقال: كسرت، إنما قال: يا أيها الناس اتقوا ربكم .... زلزلةُ الساعة شئ عظيم . فقيل له: هذا القرآن وليس بشعر[٦٩].

التوضيح: إنّ هذه العبارة القرآنية الكريمة بدأت متمشية مع وزن السريع الذي هو: «مستفعلن مستفعلن فاعلن» مرتين . وبينما هي منسابة مع هذا الوزن إذ فوجئنا بكلمة ‹ إنّ› تحطم هذا الوزن، وتعيق استمراره على هذا البحر . ولعل هذا إنما حصل ليتحقق ما أريد تحققه من الأسلوب المعجز.

هذا هو الأسلوب القرآني المعجز الذي لم يدرك جميع أسراره أدباء العرب البلغاء قديماً وحديثاً، ولقد وصفه بلغاء الجاهلية بقولهم: " إنّ له لحلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً"[٧٠]، وإنّ أسفله لمُغدق[٧١]، وإنّ أعلاه لمثمر[٧٢]، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وما هو بكلام البشر[٧٣] . لكنَّ أسرار هذه الحلاوة الساحرة، وكنه هذه الطلاوة الباهرة لم تكتشف بعد.

اللطيفة الثالثة: أننا وجدنا – وقد ذكرنا هذا سابقاً – في سورة واحدة عبارات متفرقة فيها تحمل كل منها وزن بحر من بحور الشعر بحيث وجدنا في سورة واحدة أوزان ثلاثة بحور شعرية منتشرة بين عبارات خالية من الوزن، إذ قد وجدنا في سورة البقرة ثلاث عبارات تحمل كل منها وزن بحر معين، وإليك تفصيل ذلك:

العبارة الأولى: أخذها واقتطعها السيوطي من الآية العاشرة التالية من سورة البقرة: قال – تعالى –: «في قلوبهم مرضٌ فزادهمُ الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون»[٧٤].

والعبارة هي: « في قلوبهم مَرضٌ » ووزنها هو: «فاعلاتُ مفتعلن»، وقد مثل بها السيوطي للبحر المقتضب[٧٥].

العبارة الثانية: اقتطعها السيوطي من قوله– تعالى – من نفس السورة: " فهدى اللهُ الذين آمنوا لِما اختلفوا فيه من الحقّ باذنهِ واللهُ يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم[٧٦].

والعبارة هي: « واللهُ يهدي مَن يَشاءُ إلى صراط مستقيمٍ » . وقد مثل بها السيوطي للبحر الكامل[٧٧].

العبارة الثالثة: اقتطعها السيوطي من قوله – تعالى – من نفس سورة البقرة: " أو كالذي مرَّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشها قال أنّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماتهُ اللهُ مئة عامٍ ثمَّ بَعَثهُ"[٧٨].

والعبارة هي: « أو كالذي مرَّ على قريةٍ » ووزنها هو: « مستفعلن مستفعلن فاعلن » ومثل بها للبحر السريع [٧٩].

إنّ هذا الجمع بين أوزان هذه البحور المعينة دون غيرها موزعة في نص خال من الوزن و إخراج الجميع في أسلوب واحد، لأمر يدعو إلى مزيد من التأمل والتدبر، ولعله يمثل سراً من أسرار الأسلوب القرآني المعجز.

اللطيفة الرابعة: أننا وجدنا العبارة القرآنية الكريمة التالية: " الحَقّ بإذنه واللهُ يهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم "[٨٠]. أم حَسِبْتمْ أنْ تدخلوا الجنة[٨١]، التي تنقسم إلى قسمين

من جهة أنّ كل قسم منها من آية وجدنا كل قسم منـــها يشتمل على ظاهرة وزينة جديرة بالتأمل والدرس.

القسم الأول: «الحَقّ بإذنه واللهُ يهدي مَن يشاءُ إلى صراط مستقيم»: إنّ هذه العبارة يبدأ فيها وزن البحـــر الكامل من القاف الثانية من كلمة « الحَـــقّ »، لكنـــها تشتمل على خمس تفعيلات . وهذا ما لا وجود لـــه في الشعر ولا في البحر الكامل، إذ لا وجود لخمس تفعيلات في البحر الكامل إلاّ شاذاً . لذلك حين مثل السيوطي بهذه العبارة القرآنية للبحر الكامل[٨٢]، أهمل ذكـــر التفعيلـــة الأولى، وبدأ هذه العبارة من الواو، وهذا مما يؤخذ على السيوطي في هذا المجال .

والمهم أنّ هذه الظاهرة تدعو إلى مزيد مـــن التأمـــل والدقة، لأنّ هذه العبارة تجمع بين الأمرين المتضادين التاليين:

الأول: الاشتمال على وزن البحر الكامل.

والثاني: الخروج على قوانين البحر الكامل.

فهذه العبارة القرآنية في الوقت الذي حملت فيه وزن الشعر خالفت فيه نظام هذا الوزن.

القسم الثاني: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ... »: إنّ هـــــذه العبارة لا تكون موزونة إلاّ إذا ختمناهـــا بألف ولام « الجنة »، فاذا ختمت بالألف واللام اشتملت على هاتين التفعيلتين: «فـــاعلاتن مـــستفعلن» اللـــتين تشكلان وزن شطر واحد من البحر الخفيف.

وهذه الظاهرة تتمثل في سرعة الانتقال مـــن وزن البحر الكامل إلى وزن البحر الخفيف ثم إلى عدم الوزن.

والمهم أن قسمي هذه العبارة القرآنية قد جمع بـــين هاتين الظاهرتين، كما جمع بين وزني هذين البحـــرين في نص خال من الوزن، وأسلوب بليغ ممتع.

والسلام على من اتبع الهدى، وسبحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عمّا يصفونَ وسلامٌ على المرسلين و الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين.

٧- المصادر والمراجع

١- الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق محمد أبـــو الفضل ابراهيم، القاهرة.

٢- أسرار البلاغة لعبد القاهـــر الجرجاني. تحقيق الـــسيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت.

٣- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط ٤، سنة ١٩٧٧ م.

٤- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبـــو الفضل ابراهيم، دار الجيل بيروت، سنة ١٩٨٨ م.

٥- البرهان في وجـــوه البيان لأبي الحـــسين الكاتـــب، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب وآخر، جامعة بغـــداد، ط ١، سنة ١٩٦٧ م.

٦- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق حـــسن الـــسندوبي، المطبعة الرحمانية بمصـــر، سنة ١٩٢٧ م.

٧- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، تحقيق علي محمد البجاوي، مؤســـسة عيـــسى البـــابي الحلـــبي وشركاه، القاهرة، سنة ١٩٧٦ م.

٨- تحرير التحبير لأبن أبي الاصـــبع، تحقيـــق الـــدكتور حفني محمد شرف، القاهرة، سنة ١٩٩٥ م.

٩- التوجيه الأدبي للدكتور طه حـــسين وآخـــرين، دار الكتاب العربي بمصر، سنة ١٩٥٤ م.

١٠- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيـــق محمـــد خلف الله أحمد وآخر دار المعارف بمصر، ط ٤، سنة ١٩٩١ م.

١١- خزانة الأدب للحموي. شرح عصام شـــعيتو. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢ سنة ١٩٩١ م.

١٢- الخيال في الشعر العربي للشيخ محمد الخضر حسين، جمعه وحققه علي الرضا التونسي، ط ٢، سنة ١٩٧٢ م.

١٣- ديوان أبي نؤاس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكـــتاب العربي، بيروت سنة ١٩٨٤ م.

١٤- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، تحقيق مصـــطفى الشويمي، مؤسسه بدران للطباعة والنشر بـــيروت، ســـنة ١٩٦٣ م.

١٥- العمدة لابن رشيق، تحقيق محمد محيي الـــدين عبـــد الحميد، مطبعة حجازي القاهرة ط ١، سنة ١٩٣٤ م.

١٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري.

١٧- مجمع البيان لأبي علي الطبرسي، تحقيق السيد هاشم المحلاتي وآخر، دار المعرفة، المعرفة، ط ٢، سنة ١٩٨٨ م.
١٨- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي، تحقيق نعيم زرزوز، دارالكتب العلمية، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٧ م.
١٩- موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٥، سنة ١٩٧٨ م.

٨- الهوامش

١- الكهف: الآية ٢٩.
٢- هود: الآية ٣٧.
٣- الأحقاف: من الآية ٢٥.
٤- التوبة: من الآية ١٤. أقول: إنّ هذه العبارة القرآنية الكريمة لا تحمل وزن الوافر، ولا وزن غيره من البحور، إلاّ بالتصرّف وإجراء تغيير فيها، ولا شك أنّ التصرف في الآية القرآنية، وإجراء تغيير فيها يخرجها عن كونها قرآناً، فلا يجوز الاستشهاد بها بعد ذلك على أنها قرآن. بل لا يجوز التصرف في القرآن الكريم. والسيوطي وغيره مؤاخذون على ذلك حتى مع حسن النية. ولعلنا سنوضح هذا التصرف في الأدلة التي سنوردها لإثبات أنّ القرآن ليس بشعر.
٥- البقرة: من الآية ٢١٣.
٦- يوسف: من الآية ٩٣.
٧- الانسان: الآية ١٤. أقول: إنّ هذه الآية الكريمة لا تحمل وزن البحر الرجز، ولا وزن غيره من البحور الشعرية، إلاّ إذا تصرّفنا، وغيّرنا فيها وذلك بأن نحذف الواو من أول الآية الكريمة، ونضيف حركة إلى الميم في: «عليهم»، ثم نشبع هذه الحركة ليتولد منها حرف. ولا شك أنّ واحداً من هذه التغييرات الثلاثة يكفي لإخراج هذه الآية من كونها قرآناً معجزاً، لذلك لا يجوز علمياً الاستشهاد بها على أنها من القرآن للرجز. علماً بأنّ هذا العمل مرفوض أساساً وابتداء، وأنه غير جائز شرعاً. ولا أدري بماذا برر السيوطي وغيره عملهم هذا.
٨- سبأ: من الآية ١٣.
٩- البقرة: من الآية ٢٥٩.
١٠- الانسان: من الآية ٢.
١١- النساء، من الآية ٧٨.
١٢- غافر، من الآية ٣٢.
١٣- غافر، من الآية ٣٣.
١٤- البقرة، من الآية ١٠.
١٥- الحجر، الآية ٤٩.
١٦- الأعراف، الآية ١٨٣.
١٧- الاتقان، السيوطي، ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧. وراجع إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٥١ - ٥٣.
١٨- تحرير التحبير، ابن أبي الاصبع ص ٤٢٩.
١٩- خزانة الأدب، الحموي، ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
٢٠- الاتقان، السيوطي، ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
٢١- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٥١.
٢٢- البرهان، الزركشي، ج ٢، ص ١١٤- ١١٥.
٢٣- المؤمنون، الآية ٣٦ .
٢٤- سبأ، الآية ١٣.
٢٥- إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٥١ - ٥٣.
٢٦- الصاحبي، ابن فارس، ص ٢٧٣.
٢٧- راجع أسرار البلاغة للجرجاني، ص ٢٣٦.
٢٨- الحاقة، الآية ٤٣.
٢٩- البرهان للزركشي، ج ٢، ص ١١٣ - ١١٤.
٣٠- التوجيه الأدبي لطه حسين وآخرين، ص ١٤٧.
٣١- المرجع السابق، ص ١٣٢.
٣٢- إعجاز القرآن، للباقلاني، ص ٥٣.
٣٣- المسد، الأية الأولى.
٣٤- البيان والتبيين للجاحظ: ج ١، ص ٢٨٨.
٣٥- الكشاف للزمخشري: ج ٤، ص ٢٧.
٣٦- مفتاح العلوم للسكاكي: ص ٥١٦ - ٥١٧.
٣٧- موسيقي الشعر لابراهيم أنيس: ص ٣٢٩.
٣٨- النساء: الآية ٧٨.
٣٩- الاتقان للسيوطي: ج ٣، ص ٢٩٧.
٤٠- غافر: الآية ٣٢.

٤١- غافر: الآية ٣٣

٤٢- الاتقان، السيوطي، ج ٣، ص ٢٩٧.

٤٣- الأنعام، من الآية ١٥١. و تكررت هذه العبارة في سورة الاسراء، من الآية ٣٣.

٤٤- راجع التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ج ١، ص ٥٤٨.

٤٥- قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان: ج ٤، ص ٥٩١. «والحق الذي يستباح به القتل النفس المحرم قتلها ثلاثة أشياء: القود، والزنا بعد إحصان، والكفر بعد إيمان». وقال الزمخشري في الكشاف: ج ٢، ص ٧٩. («إلاّ بالحق»: كالقصاص، والقتل على الردّة: والرجم).

٤٦- موسيقي الشعر لابراهيم أنيس: ص ٣٢٩.

٤٧- الماعون: الآية ١٤.

٤٨- ديوانه: ص ٦٩٦.

٤٩- الزخرف: الآية ١٣.

٥٠- راجع إعجاز القرآن للباقلاني: ص ٥٣.

٥١- الانسان: من الآية ٢.

٥٢- الانسان: من الآية ١٤.

٥٣- البقرة: من الآية ١٠.

٥٤- البقرة: من الآية ٢١٣.

٥٥- البقرة: من الآية ٢٥٩.

٥٦- موسيقي الشعر لابراهيم أنيس: ص ٣٣٢.

٥٧- موسقي الشعر لابراهيم أنيس: ص ١٥١.

٥٨- العمدة لابن رشيق: ج ٢، ص ٢٩٣.

٥٩- البرهان لأبي الحسين الكاتب: ص ١٨٦.

٦٠- موسيقي الشعر لابراهيم أنيس: ص ٣٣٢.

٦١- المزمل: الآية ٤.

٦٢- الخيال في الشعر العربي لمحمد الخضر حسين: ص ٧٣.

٦٣- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي: ص ٥١٦- ٥١٧.

٦٤- الصاحبي لابن فارس: ص ٢٧٣.

٦٥- ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: ص ١٢٢.

٦٦- النساء: من الآية ٧٨.

٦٧- الكهف: من الآية ٩٣.

٦٨- الماعون: الآية ١٤.

٦٩- الحج: الآية الأولى.

٧٠- البرهان للزركشي: ج ٢، ص ١١٦.

٧١- الطلاوة: الجمال والحسن والرونق.

٧٢- مغدق: غامر، مسيطر على قارئه، عطاؤه كثير غامر.

٧٣- مثمر: ذو عطاء.

٧٤- مفتاح العلوم للسكاكي: ص ٥١١.

٧٥- البقرة: الآية ١٠.

٧٦- راجع الاتقان للسيوطي: ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

٧٧- البقرة: من الآية ٢١٣.

٧٨- البقرة: الآية ٢٥٩.

٧٩- راجع الاتقان للسيوطي: ج ٣، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

٨٠- البقرة: من الآية ٢١٣.

٨١- البقرة: من الآية ٢١٤.

٨٢- راجع الاتقان يف علوم القرآن للسيوطي: ج ٣، ص ٢٩٧.

حقیقت پدیده وزن در قرآن کریم

محمد ابراهیم خلیفه شوشتری[1]

علمای قدیم متوجه این پدیده شدند که بعضی از عباراتهای قرآن کریم دارای وزن می‌باشند. اما بعضی از علما مدعی شدند که تمام شانزده‌گانه بحور شعر در ان عبارات قرآنی موجود است، ونیز معتقد شدند که این پدیده دلیل قوت سبک نگارش قرآن کریم می‌باشد.

متاسفانه این اعتقاد انها را به این امر نا لائق وادار کرد که برای هر بحر از بحور شعر یک عبارت قرآنی به عنوان مثال ذکر کنند، که اکثر این عبارتها جملات ناقص هستند زیرا که از وسط کلام مجرد از وزن، جدا شدند آن هم در حالی‌که معنای انها مرتبط به عبارتهای ما قبل وما بعد می‌باشد. در نتیجه آنها معتقد شدند که این پدیده در واقع چیزی جز یک پدیده بلاغی به نام (الانسجام) نمی‌باشد.

حال این مقاله با این اعتقاد و این پدیده (الانسجام) گفتگو ومناقشه می‌کند، و آنها را زیر سوال میبرد، سپس یازده دلیل علمی می‌آورد برای ثابت کردن اینکه قرآن کریم از جنس شعر نیست. در نهایت نظر نگارنده پیرامون این پدیده ارائه می‌شود.

واژگان کلیدی: ترتیل، سرود، وزن، آهنگ، بحور شعر.

۱. عضو هیأت علمی دانشگاه شهید بهشتی تهران